إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثانى ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

دراسة نقدية فى مبنى خمريات أبى نواس

يوسف هادى پور نهزمى*

الملخص

تطلق الخمريات على الأشعار التى تتناول عالم الشراب، بدءا بالخمرة وأوصافها، مرورا بأوانيها وأشكالها، ورجوعا إلى مواطنها وكرومها ووصفا لمجالسها وما تضمّه من سقاة وندمان وغناء ولهو وطرب، وتتبّعا لتأثيرها فى النفس، ودبيبها فى مفاصل الجسد، وما يحصل منها من نشوة، وخيلاء، وما يجرى فى مجالسها من طرائف ولطائف، وطقوس وشعائر، وغير ذلک ممّا جعل القصائد الخمرية أو الأبيات التى تضمّها قصائد الشعر العربى فى هذا الموضوع، تحتل مكانة بارزة، وتكاد أن تكون نوعا مستقلا بذاته. لما تتميّز به من خصوصية الوصف، والسّياق القصصى أحيانا، ومن أبعاد سياسيّة واجتماعيّة فى بعض الأحايين، وأبعاد فكرية، وتأملية ذات منحنى فلسفى ظاهر فى أحيان أخرى. ولاشكّ فى أنّ أبانواس هو رائد الشعر الخمرى أبدا. على أنّه اتّخذ الخمرة مدخلا إلى عالم السياسة، والسعادة، والجمال، والمعرفة، ومخرجا وحيدا من سجن المجتمع وسجن أعرافه، و تقاليده، ومأزق الوجود. بسبب هذه الأهمية البالغة نعالج خمرياته من الناحية الشكلية حتّى تتبين الوجوه المتميزة فى شكل خمرياته كمقدّمة لدراسة مضمون خمرياته فى مقال آخر.

الكلمات الدليلية: أبونواس، رائد الشعر الخمرِى، الخمريات، مجالس الخمر.

---

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية ـ أستاذ مساعد.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندى.

Hadi1339@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٣/٢٦هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٤هـ. ش

المقدّمة

لايمتاز أبونواس بالمدح ولا بالهجاء ولا بغير هذه الفنون، بل إنّه يمتاز بشعره الخمرى، واقترن ذكره بالخمرة وبقى اسمه ملازما لها حتّى يومنا هذا. قيل: إنّه شاعر الخمر، وقيل: إنّه مؤسس مدرسة الخمر، واعتبره الكثيرون زعيما بلا منازع للخمريات فى الأدب العربى. ولا شكّ فى صحّة جميع هذه السمات، ولكنّ السؤال هنا: كيف ظّل زعيما للخمريات مع أنّه لم يكن أوّل من ابتكر هذا الفنّ فى تاريخ الشعر الخمرى؟ بل سبقه إليه أكثر من شاعر فى العصر الجاهلى وفى العصر الإسلامى وفى عصره بالذّات. ونافسه فيه كثير من معاصريه وسبقه إليه كثيرون. إذا توغّلنا فى الموضوع، نجد أكثر من عاملٍ قد جعل من أبى نواس، شاعر الخمر بلا منازع فى الأدب العربى، وزعيم القدماء والمحدثين منها أنّه:

بلغت الخمرة عنده مرتبة كبيرة من التعظيم والتقديس، على حسب الظاهر، بحيث أنّه استطاع أن يخلق منها عالما شعريا يجسّد من خلاله طاقته الروحية والإبداعيّة والفكرية، بحيث قد بيّنت خمرته عمق نظرته إلى الحياة، والوجود، والإنسانية. فيخلق بواسطتها عالما جديدا متفّردا بأفكاره وآرائه وبإمكاننا أن نسمّيه عالما نواسيّا. فخمرته خمرة يمتزج فيها الإحساس بالفكر والروح، وتذوب فيها النفس شوقا إلى الخلاص من المصائب والآلام. ففيها صفات كلّ ما هو جميل ونقّى، تحنّ إلى الصور والأسرار، وتتكلّم بالإيحاءات. فهى محرم الأسرار.ثم إنّه جعلها مرآة، يرى من خلالها تحوّلات مجتمعه وتحوّلات العالم وجماله، كأنّها كأس الملك جمشيد الأسطورى. كما جعلها وسيلة لثورته وتمردّه على الأعراف الاجتماعية، والسنن الشعرية. وأكثر من ذلک كانت وسيلة لتعامله مع الناس والتعايش بينهم، وفى تلک الحال كانت وسيلة لمحاربة القبح مع الإكثار فى ذكر القبح. وكانت تعويضا يستبدل به كلّ مايكره بكلّ ما يحبّ، وتعويضا عن الحرمان فى ظلّ خلافة وخليفة يدّعى بأنه خليفة إسلامية وينشر الصدق والصفا، مع أنه ناشر الكذب والرّياء. فلا شک فى أنه زعيم الشعر الخمرى، على أنّه اتّخذ الخمرة – هذه الفاكهة المحرمة – مدخلا إلى عالم المعرفة وعالم السياسة وعالم السعادة والجمال،

ومخرجا وحيدا من سجن المجتمع وسجن أعرافه وتقاليده وقيوده ومن مأزق الوجود.

إنّه اتّخذ هذه الوسيلة المألوفة عند الناس، رمزا لتجسيد ما هو ضدّه. يتكلّم عن لسان وسيلة محرّمة ولكن، شائعة ومتداولة، لتبيين ما هو أخلاق، كما يقول طه حسين: «كان أبونواس إذن فی هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة، محبّا للأخلاق وأصول الفضيلة. كان يؤثّر الصدقَ وينكر الكذب.» (حسين، ۱۹۷۶م، ج۲: ۲۶۴)

هذا هو بعض الخصائص لخمريات أبی نواس، الخصائص الّتی جعلته زعيما بلا منازع للشعر الخمری. وإن كنّا لا نشكّ فی أنَّ أبانواس قد شرب الخمرة ولكنّنا نشكّ كثيرا فيما قيل عن مجونه وميله إلی التفحّش والتهتّک ونرفض بعد كلّ ما عرفناه عن أبی نواس من ممّيزات أن يكون ماجنا بالفعل، أو عربيدا أو متهتّكا، كما يشهد أبونواس بقوله: «واللّه ما فتحتُ سراويلی لحرامٍ قطُّ.» (ابن عساكر، ۱۳۳۲ش، ج۴: ۲۶۴) وكما يقول عند الإجابة للجمّاز الذی يدعوه إلی التوبة: «يا أبا عبداللّه ما أشركت باللّه طرفة عين قطُّ.» (ابن منظور، ۱۹۹۵م: ۳۰۲) ونحن نری بأنّ لشعره مظهرين: مظهرا ظاهريا وعلنيا يُساير ويرضی مجتمعه، ولا بدّ له أن يتّخده لتعايشه مع الناس. ومظهرا باطنيا، يجسّد فكر أبی نواس وآفاقه الروحيّة والنفسيّه والسيّاسية والاجتماعية. والمظهر الأوّل – برأينا – كان ستارا لحفظ المظهر الثانی وفی الحقيقة اتخذ التقيّة بشكل يخصّه ويخصّ القرن الثانی للهجرة.

ولكلِّ إنسان ملتزم بالقيم الاجتماعية والإنسانية، طريق خاص يتّخذه عند الشدائد أمام سلطة الجور وسلطان جائر. ولكّل شاعر ملتزم، أسلوب خاص فی التعبير عمّا يعتقده ويختلج فی ضميره.

فليس شاعرا ملتزما من لايعرف زمانه، ولايفهم حوائج مجتمعه ولايدرک خصائص الدولة الّتی فی ظلّها يعيش، وليس الشاعر الملتزم ذا ذكاوة إن لايتخذ وسيلة مألوفة عند الناس ومناسبة للعصر والمجتمع، رمزا لتبيين ما يريده ويتنّماه. وهذا هو أبونواس، له استطاعة خاصة، وقدرة فنية خلاقة، استعملها بأحسن وجه من الوجوه المألوفة.

خمرياته من حيث الشكل

علمنا بأنّ الشعر الخمرى ليس من الموضوعات الجديدة، وقد عرف فى الشعر الجاهلى وفى صدر الإسلام وفى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى. ولكنّه ما كان فنّا مستقلّا، بل الشعراء كانوا يقصدون به إلى غرض أصلى وهو الفخر ومدح المحاسن والأخلاق الكريمة. ثم إنّ الألفاظ والمعانى كانت متكرّرة إلى حد كبير. فلسنا فى هذا المقال نعالج المعانى المتداولة عند الشعراء قبل أبى نواس فى هذا الفن.

وأمّا الذى سنتناول فى هذا المقال فهو الشعر الخمرى من حيث الشكل من الجاهلية إلى قبيل عهد أبى نواس للتعرّف على موارد الخلاف فى شكل خمريات أبى نواس وما أتى بجديد فى هذا الفن من ناحية الألفاظ والصور والتشبيهات الجديدة بالنسبة للشّعراء قبله، دون النظر إلى الأغراض والمعانى الجديدة التى سنعالجها فى مقال آخر.

وأمّا الشعراء الجاهليّون عندما وصفوا الخمرة فأجادوا فيها بعض الإجادة، ولم يكن وصفهم عميقا وكانوا يقنعون بالظواهر، يصفون أقداحها وأباريقها ومكان شرائها وصفا مجملا ويصفون طعمها عند مزجها بالماء وما تُثير من نشوة، غير مبالغين فى هذا الوصف ولا مسرفين فى البحث عن الدقائق. كما وصفها عمرو بن كلثوم فى معلّقته التى استهلّها بنسيب خمرى بدلا من النسيب الطللى، خلافا لأسلوب الشعراء قبله و معاصريه حيث يقول:

ألا هُبّــى بصحنــک فاصبحينا ولاتُبقــى خمــور الأندرينــا
مشعشــعةً كأنّ الحُــصَّ فيهــا إذا مــا المــاءُ خالطَها ســخينا

(البستانى، ١٩٦٠م، ج١: ١٢٩)

إنّه يذكر الصحن – وهو القدح الكبير– ويشير إلى الشرب فى الصباح، ويذكر قرية مشهورة فى جنوبى حلب وهى «الأندرين» وخمرها مشهور. يشبه لون الخمرة عند مزجها بالماء الساخن بلون الحُصّ، وهو نبت له زهر أحمر إلى الصفرة، يشبه الزعفران.

وللبيد بن ربيعة أبيات يكتفى بأن يصف الخمرة بصفائها ويصف خابيتها بلون أغبر وجونة، حيث يقول:

أغلی السباءَ بکلِّ أدکنَ عاتقٍ أو جونةٍ قُدِحتْ و فضَّ ختامُها
بصبوح صافیة وجذب کرینة بمؤثرٍ تأتاله إبهامُها

(المصدر نفسه: ۱۱۰)

أدکن بمعنی أغبر اللون وهو صفة للزُّق المحذوف. والجونة بمعنی السوداء وهی صفة للخابیة المحذوفة. وهو أیضا یشیر إلی شرب الخمرة فی الصباح مبکّرا قبل أن تُصبح الدجاج، وفی وصفه شیء إضافی بالنسبة لعمرو بن کلثوم وهو حضور امرأة تضرب علی الکِران وهو نوع من العیدان، فلبید یجسّد لنا مجلسا فیه خمرة صافیة و امرأة عازفة وما یلازمها.

فی حین نری عدی بن زید العبادی یصف الخمرة أجمل وأوسع وأروع بالنسبة للآخرین لأسباب، ومنها: أنّه کان نصرانیا عارفا بمجالس الخمرة وآدابها. ثم إنّه نشأ فی «الحیرة»، بالقرب من إیران، ودرس العربیة والفارسیة، فاتّصل بهرمز الرابع – أحد ملوک فارس– وتأثّر بالحضارة الفارسیة، وهی علی أوجها فی عهد کسری أنوشروان.

فلهذا نری فی أبیاته – علی جاهلیتها وبداوتها – رقة الحضارة إذ یقول:

وَدَعوا بالصبوح یوماً، فجاءت قینةٌ فی یمینها إبریقُ
قدّمتْه علی عُقار کعین الدیک صَفّی سُلافَها الراووقُ
مُرّة قبل مزجها، فإذا ما مُزجتْ لذَّ طعمَها مَن یذوقُ
وطفا فوقها فقاقیُع کالیا قوتِ حمرٌ یُثیُرها التصفیقُ
ثم کانَ المزاجُ ماءَ سحابٍ لا صدی آجن و لا مطروقُ

(المصدر نفسه: ۲۶۱–۲۶۲)

وهو أیضا یشیر إلی شرب الخمرة فی الصّباح، ولکن شربه یختلف من شرب الآخرین، علی أنّه مدعوّ فی مجلس من مجالس الشراب، فلم یشرب علی یده، بل شربها علی ید مغنّیة فی یمینها إبریق حافلة بالخمرة. قدّمت المغنیة إلیه خمرة لونها کلون عین الدیک، وهو نوع من النبت، وقد نقّحتها بالمصفاة قبل الشرب. یشیر إلی مزجها بالماء ولذّتها، و لکنّنا نری فی وصفها شیئا إضافیا، وهو وصف الفقاقیع التی تتشکّل عند مزجها بالماء،

ويشبّهها بالياقوت فى حمرتها. ويذكر بأنّ المزاج كان ماء صافيا وهو ماء سحاب ولاماء آجن ولامطروق.فنرى فى وصفه تعابير جديدة وألفاظا جيدة بالنسبة للآخرين لأسباب ذكرناها.

وأمّا الأعشى، فعنده للخمرة منزلة خاصة وله فى وصفها يد طولى، وهو لا يكفى بوصف الخمرة بلسانه، بل يظهر لنا أثرها فى النفس ويتكلّم عن لسان شارب الخمرة ويجسّد لنا حركاته وسكناته عند وصف الخمرة.انظروا إلى هذه الأبيات:

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى ... شاوٍ، مِشَلٌ، شَلولٌ، شُلشُل، شَوِلُ
نازعتُهم قُضَبَ الريحان، متكئا ... وقهــوة مُــزّة، راووقهــا خَضِلُ
لايســتفيقون منها، و هى راهنة ... إلاّ بـ«هاتِ» وإن عَلّوا وإن نَهِلوا
يسعى بها ذو زجاجاتٍ له نطف ... مقلّصٌ أســفَلَ السربالِ، مُعتَمِلُ
ومستجيب لصوت الصنج تسمعه ... إذا ترجّــع فيــه القينــة الفُصُلُ

(المصدر نفسه: ٢٢٨-٢٢٩)

يشير إلى ذهابه إلى الحانوت صباحا باكرا ويشرح لنا القضايا الّتى حدثت هناك. الألفاظ المستعملة تدلّ على أنّه سكران وهى كثرة الشينات فى الشطر الثانى من البيت الأوّل. إنّه يصف لنا أحدى مجالس الشرب، يشربون من إناء دائم الرّطب من أثر الخمرة وهم فى حالة السكر. لايستفيقون من هذه الحالة إلاّ بقولهم للساقى «هاتِ». يسعى بها غلام مقرّط فى يده زجاجات وله سربال قصير يزيد على جهده فى الخدمة، وفى المجلس قينة تضرب العود، وصوت العود مستجيب لصوت الصنج يضربها شخص آخر. فالأعشى يصف لنا مجلسا من مجالس الخمر ويصوّر لنا حالاتهم الخاصة عند شربها بدقة تامة بحيث لم يأت بها شاعر جاهلى آخر.وفى مكان آخر يقول:

وَصهبــاءَ طــافَ يهوديُّها ... وأبرَزَهــا وعليهــا خُتُــم
وقابلهــا الريحُ فــى دنِّها ... وصلّى على دنِّها وارتشم

(المصدر نفسه: ٢٣٥-٢٣٦)

سُمّيت الخمرة بصهباء، نظرا إلى لونها وهو الأشقر الضارب إلى الحمرة وعليها ختم. فما كان الدنُّ مفتوحا و هذا يدلُّ على أصالة الخمرة. وأيضا له وصف جميل لم يُسمع

من أحد الشعراء قبله، وهو وصف لحظة تهب الريح على الدّن وتبردها، ويشبه الصوت الحاصل عند الالتقاء بالدّن، بصوت الراهب الذی يصلّی ويقوم بالدّعاء.

كان الأعشى ذا ثقافة واسعة.إنّه قطع العراق إلى بلاد الفارس ومدح ملوكها وأدرک الإسلام. وعلى هذا نراه قد تأثّر بالقرآن الكريم فی اللّفظ والتّعبير، كما جاء فی القرآن الكريم: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطفّفين: ۲۵) وهذا التأثر مشهود فی استعمال فعل «صلّی» و«ارتشم» وهو ذكر الدعاء. وهكذا من كلمة «خُتُم». وله قصيدة أخرى فی مدح أياس بن قبيصة الطائی ومطلعها:

وَشمولٍ تحسبُ العينُ، إذا صُفِّقَتْ، وُردَتَها نورَ الذُبَح

(البستانی، ۱۹۶۰م، ج۱: ۲۴۴)

يسمّی الشاعر الخمرة شمولا وهی الخمرة التی هبّت عليها الريح الشمالية وأبردتْها، ويشبه لونها بنور الذُبَح، وهی نبتة حمراء. ويشير إلى رائحتها ويذكر إناء الخمرة وينعتها بجونة جارية، وهی إناءة حافلة بالخمرة من مدينة الحيرة، ويصف الإبريق والقدح ويشير إلى كثرة الخمرة حيث إذا صبّ الماء عليها أزبدت وذهبت إضافاتها. ثم يصف مجلس الخمر وما فيه من مغّنٍ وآلات الطرب والشّرب، ويذكر الشباب كأنهّم مصابيح فی الدجی ويصف أحوالهم فی حالة السكر حيث لايستطيعون القيام ويجرّونهم الآخرون.

وخلاصة القول إنّ الأعشى من أحسن الوصّافين للخمرة ويفوق على سائر الشعراء الجاهليين جميعا.

وأما خمريات حسّابن ثابت من حيث الشكل، فيختلف من خمريات الآخرين، إذ إنّه من المخضرمين ومتأثّر بالقرآن الكريم وهو شاعر النبی(ص). وعندما يصف الخمرة يذكرها بصفات ذُكرت فی القرآن الكريم. نذكر بعض الأبيات له على سبيل المثال:

يَسقُونَ مَن وَرَدَ البريصَ، عليهم بَردَی يُصفَّقُ بالرحيق السَّلسَلِ
يُسقَونَ درياقَ الرّحيق، ولم تكن تُدعی وَلائِدُهم لِنَقفِ الحنظلِ
بيض الوجوه، كريمة أحسابُهُم شمُّ الأنوفِ من الطّراز الأولِ

(البستانی، ۱۹۶۰ م، ج۲: ۲۵)

كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطفّفين: ۲۵) أو كما ورد: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ (الإنسان: ۱۷-۱۸) وإنّه قدأتى بوصف جديد فى وصف الخمرة وشبّهَ طعمها بطعم الفلفل حيث يقول:

ولقد شربتُ الخَمر مِن حانوته صهبــاءَ صافيةً كطعــمِ الفلفلِ

وثم يكررّ وصف الأعشى ويقول:

يســعى علىَّ بكأســها متنّطِفٌ فيعِلُّنــى منهــا، ولو لَــم أنهلِ

والمتنطفّ غلام ذو قرطة. وبعد ذلک له بيت مشهور وعذب وهو:

إنّ الّتــى ناوَلتَنــى فرددتُهــا قُتِلتْ ـ قُتلِتَ ـ فَهاتها لم تُقتل

(البستانى، ۱۹۶۰ م، ج۲: ۲۵)

وهذا تعبير رائع وجديد يلائم الذوق الأدبى وهكذا فيه شيء من الحكم الشرعى وطريق لتحليل الخمر، ذكرناها آنفا وبعد ذلک يصف حركة الخمرة فى قعر الزّجاجه ويشبهها بحركة الراكب على الناقة عند السير، وهى كحركة الرقاصة عند الرقص و هذا أيضا وصف جديد، ولم يأتِ به شاعر قبله.

وله قصيدة أخرى فى الخمر يبدأها بنسيب طللى كما يبدأ الشاعر الجاهلى ولكنّه فيه فرق كبير، إذ لها نسيب سلبى ولا إيجابى ومطلعها:

ما هاجَ حسّانَ رسومُ المُقام ومظعــنُ الحّيِ ومبنى الخيام

والنؤىُ قــد هــدَّم أعضادَهُ تقــادُمُ العهــدِ بــوادى تِهام

آثار الحضارة فى هذه الأبيات واضحة إذ إنّ حسّان حضرى بالنسبة للشعراء قبله. فهو يمدح الأحياء ويميل إلى الحياة ولا يميل إلى ذكر ما مضى. ثم ينتقل إلى مدح الخمرة والأماكن المشهورة لشِرائها ويصف مجلسا من مجالس الخمرة ويشير إلى مفعولها فى النفس و له فيه تعبير جديد إذ يقول:

تــدبُّ فى الجســم دبيبــا كما دبَّ دَبَــىً وســطَ رَقــاقٍ هَيام

(المصدر نفسه: ۳۲-۳۳)

وفعل «دبّ» یدلّ علی تأثیر الخمرة فی الجسم بصورة تدریجیّة ویشبهها بحرکة الدبی، وهو موجود أصغر من النمل، فی وسط الرمل.

نکتفی بهذا المقدار من شکل الخمریات عند حسّان بن ثابت قائلا بمقدار قلیل من التقدّم عنده فی وصف الخمر وذکر مجالسها من حیث الشکل دون المعنی وننتقل إلی العصر الأموی ونذکر زعیم الشعر الخمری فی تلک الفترة وهو الأخطل، الشاعر النصرانی الذی لقّب بشاعر بنی أمیة بالحق. وله قصائد کثیرة فی الخمرة ومجالسها، ومنها قصیدة یشبه فیها أوانی الخمرة الکبیرة برجالٍ من السودان دون أن یتسربلوا دلالة علی عظمة الإناء وامتلائها بالخمرة مع الإشارة إلی لونها الأسود حیث یقول:

أناخوا، فجّروا شـــاصیات کأنّها رجالٌ من السودان لم یتسربلوا

ثم یستعمل کلمة «عقار» ویشیر إلی ضوئها وتبرکّها، علی أنّه نصرانّی وعندهم للخمرة قداسة، إذ یقول:

تُمّرُ بها الأیدی سنیحاًوبارحاً وتوضع باللّهمَّ حـــیّ وِتُحمَلُ

وبعد ذلک یشیر إلی ارتیاح الشارب وطیب الخمرة ویکررّ الوصف الذی أتی به حسّان ویقول:

تدبُّ دبیباً فـــی العظام کأنّه دبیب نمـــالٍ فی نقـــاٍ یتهیّلُ

فقلتُ: اقتلوها عنکُم بمزاجها فأطیبُ بها مقتولةً حینَ تُقتلُ

(المصدر نفسه: ۹۲)

إلاّ أنّه یرجّح المقتولة من الخمرة، وهی الممزوجة بالماء، فی حین یرجّحها حسّان غیر مقتولة ویطلب الصرف منها. وهذا شیء عجیب علی أنّ حسّان رجل مسلم وشرب الخمر حرام فی دینه، وهو یطلب الصرف منها والأخطل رجل نصرانی ولا مانع له فی شربها وهو یطلب المقتولة منها الّتی تأثیرها فی الجسم أقلّ بسبب امتزاجها بالماء.وفی مکان آخر یأتی بوصف جدید وجمیل ویشبه لون الخمرة بالکوکب المرّیخ لحمرتها حیث یقول:

فجـــاءَ بهـــا، کأنّها فـــی إنائه بها الکوکب المرّیخ تصفو وتُزبدُ

(المصدر نفسه: ۹۳)

فما رأينا شيئاً جديداً عند الأخطل فى هذا الفّن إلاّ بعض التعابير الّتى تدلُّ على تقديس الخمرة عنده وهذه القداسة تعود إلى دينه. كما نرى خلفية هذه القداسة فى بعض الأديان و سنشير إليها وتأثيرها عند الإتيان بتعابير جديدة ومعانى رمزية عند أبى نواس.

وأمّا أوّل من بدأ بتغيير فى شكل الخمريات فهو الوليد بن يزيد وبعض شعراء الكوفة فى أوائل القرن الثانى للهجرة. و هذا أمر طبيعى أن يظهر هذا اللون الجديد من الشعر الخمرى فى الكوفة لوجودها فى وسط الأديرة النصرانية، وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيّون نهجا جديدا فى شعرهم عامّة وفى الخمريات خاصّة فى شكله وأسلوبه ومعانيه الّذى يميل إلى الخفّة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعانى لروح الحضارة والمدنية. على سبيل المثال نذكر أبياتا لهذا النهج من شعر الوليد بن يزيد، الخليفة الأموى الشاعر:

إصدع نجيَّ الهموم بالطرّب ... وانعم على الدهر بابنة العنبِ
واستقبل العيش فى غضارته ... لاتقـفُ منـه آثـارُ معتقبِ
مـن قهـوةٍ زانهـا تقادُمُهـا ... فهى عجوزٌ تعلو على الحقبِ
أشهى إلى الشرّب يومَ جلوتها ... مـن الفتاة الكريمة النسـبِ

(المصدر نفسه: ۲۳۳)

إلى آخر الأبيات فيها تعابير جديدة عن الخمرة: ابنة العنب، قهوة، عجوز وما إلى ذلک. والآن لايهّمنا المعانى الموجودة فيها، ولكن الشىء الذى يهمنا فى هذا الفصل هو الشكل والبحور الخفيفة الّتى اتّخذها الوليد فى شعره الخمرى. انظروا إلى هذه الأبيات:

أدِر الـكأسَ يمينـاً ... لاتُدرهـا ليسـارِ
اسـق هـذا ثـمّ هذا ... صاحب العَود النُضارِ
مـن كُميـتٍ عتّقوها ... منـذُ دَهرٍ فـى جرارِ
ختموهـا بالأفاويـ ... ـه وكافـورٍ وقـارِ
فلقـد أيقنـتُ أنـى ... غيـر مبعـوث لنـارِ

(حسين : ۱۹۷۶م، ج۲: ۸۰)

علی هذا نعتقد بأنّ شعر الخمر قد تلّونَ بلون الحضارة الجديدة فی الكوفة إلی آخر عهد الأمويين وأوّل عصرالعباسيّين واستمدَّ بعض معانيه من تراث الفرس، أو النصاری. فتنوّع الشعراء للخمر وصفاته، فقالوا فی تقديره وذكر مكانته، وشبّهوه بعروس غالية المهر، ووصفوا رائحته وما يوضع حوله أو جنب كؤوسه من مختلف لأفاويه والطيب وأنواع الرّياحين، وقالوا فی ذكر تعتيقه و قدمه و وصف رائحته و فعله فی النفوس و حالات السكری والنشاوی ممّن دارت برؤوسهم، وما قد يحدثه المزج به من فقاقيع وما يشعشع من ألوانه فی الكوؤس ووصف الكؤوس والأباريق وما إلی ذلک.

الخمرة عند أبی نواس وسيلة للفخر، يبذل فيها الدرّ والياقوت ويفتخر بشربها وبإتلاف المال فيها، ليدلّ علی جوده وكرمه كما يفتخر الشاعر الجاهلی:

إنی بذلــتُ لها لمّا بصرتُ بها ... صاعاً من الدُّر والياقوت ما ثُقِبا
يا قهوة حُرّمت إلاّ علی رَجُلٍ ... أثری فأتلفَ فيهاالمالَ والنشبا

(نجيب عطوی، ۱۹۸۶م: ۵۲ – ۵۳)

ولو يخلو من معنی جديد ولكنّه من ناحية الألفاظ رائعة جدا.وخمرته مشرقه منيرة دائما، تضیء أينما وجدت فی البيت أو الحانة:

تری حيثُ ما كانت من البيت مشرقا ... وما لــم تكن فيه مِــن البيت مغربا
يــدور بهــا ســاقٍ أغــن تــری له ... علی مُســتدار الأذن صُدغا معقربا

(المصدر بنفسه: ۴۴ – ۴۵)

وهی بأضوائها وتلألؤها شمس:

قامــت بإبريقهــا والليــل معتكــر ... فَلاحَ من وجهها فــی البيت لألاءُ
فأرســلتْ من فــم الإبريق صافية ... كأنّمــا أخذُهــا بالعيــن إغفــاءُ
جفّــت عن الماء حتــی ما يلائمها ... لطافــةً وجفا عــن شــكلها الماءُ
فلو مزجــتَ بهــا نــوراً لمازَجَها ... حتّــی تولّــدَ أنــوارٌ وأضــواءُ

(المصدر نفسه: ۱۰)

وهى كالورد وكعين الديک حمراء، وحين تختلط بالماء تفورُ، وتبدو فقاقيعها فوقها بيضاء كالحُبب أو حبّات الدُّر:

وقهــوة كجنــيٍّ الــورد خالصة قدأذهب العتقُ فيها الذامَ والرنقا

(المصدر نفسه: ٢٨٤)

وفى مكان آخر يشبه وثبة الفقاقيع بحركة الجراد فى ظلّ المروج:

واشرب سُلافاًكعين الديک صافيةً من كفَّ ســاقية كالرّيــم حوراءِ

تنــزو فواقعها منهــا إذا مُزِجت نــزوَ الجنادب فى مــرجٍ و أفياءِ

(المصدر نفسه: ١٤)

ويفتنّ فى تصوير كؤوسها وأباريقها صورا فنية جميلة أبدع خلقها وتكوينها، ويقول فى إبريقها وهو على صورة ظبى مشرف من مكان عال:

كأنَّ إبريقنــا ظبى على شــرفٍ قد مدَّ منه لخوف القانص العنقا

(المصدر نفسه: ٢٨٤)

وأحيانا هى كالكراكى تمدُّ برقابها الطويلة ورؤوسها الدقيقة:

لدينــا أباريــقُ كأنَّ رقابَهــا رقابُ كراكيٍّ قد نظرنَ إلى صقرِ

(المصدر نفسه: ١٨٨)

ويجمع الصورتين معا فى واحدة فيقول:

فى أباريــقَ من لُجَينٍ حســانٍ كظبــاءٍ ســكنَّ عــرضَ القفارِ

أو كراكٍ ذُعِرنَ من صوتِ صقرٍ مفزعــاتٍ شــواخص الأبصارِ

(المصدر نفسه: ٢٠٦)

وتصبّ الخمر فى الأباريق وفى الكؤوس، وهى بيضاء زجاجية أو من نحاس مصّور عليه صورة الأكاسرة أو صور الحيوان:

والكوبُ يضحک كالغزال مسبّحا عنــد الركــوع بلثغــة الفافــاءِ

وكأنَّ أقــداح الزجاج إذا جرت وســطَ الظلام، كواكــبُ الجوزاءِ

(المصدر نفسه: ٢٩)

وفی مکان آخر یقول:

فحــلَّ بزالُهــا فی قعــرِ کأسٍ مُحفّــرة الجوانــب والقَــرارِ
مصوّرةٍ بصورة جند کســری وکســری فی قرار الطّرجهارِ
وجلُّ الجندِ تحت رکاب کسری بأعمــدة، و أقبیــةٍ قِصــارِ

(نجیب عطوی، ۱۹۸۶م:۱۷۰)

ویعرض هذه الصورة فی شکل آخر ویقول:

تُدارُ علینا الراحُ فی عسجدیة حبتها بألــونِ التصاویر فارسُ
قرارتها کســری، وفی جنباتها مَهَا تدَّریها بالقســیِّ الفوارسُ

(المصدر نفسه: ۲۵۰)

ویصف زوراته للحانات فی قُطْرَبُل أو غیرها من أماکن اللّهو والشراب فی ضواحی بغداد. تکون زورته غالبا باللیل والناس نیام. إنّه یدبّ وحده أو مع بعض أصحابه، فیطرق باب صاحب الحانة، وهو نصرانی حینا ویهودیا أحیانا، فیجیبهم هو أو تجیبهم ابنته ویتوجس من الطارقین أوّل الأمر، ثم لایلبث أن یطمئن إلیهم لأنّه یعرف فیهم زبائنهم الّذین اعتادوه، واعتادوا أن یقدّموا المال فی سبیل الخمر ولایبخلون، فیجود لهم بأحسنه کما یقول:

وفتیــةٍ کنجــوم اللیــلِ أوجُهُهُم مِــن کلِّ أغیــدَ لِلغمّــاء فــرّاجِ
أنضــاءِ کأسٍ إذا مــا اللّیل جنَّهُمُ ســاقتْهم نحوَهــا ســوقا بإزعاجِ
طرقتُ صاحبَ حانوتٍ بهم سحرا واللّیل مُنسَــدل الظلماء کالسّاجِ
لمّا قرعــتُ علیه البــابَ أوجَلَه وقالَ بینَ مُسِــرَّ الخوف والرّاجی

(المصدر نفسه: ۸۵)

وفی مکان آخر یقول:

یــا رُبَّ منــزل خمّــار أطفــتُ به واللّیــلُ حُلّتُــه کالقــار ســوداءُ
فقــام ذو وفــرةٍ من بطــن مضجعه یمیــل من ســکره و العینُ وَســناءُ
فقال: «من أنت» فی رفقٍ فقلت له: «بعض الکِرام» وَلی فی النعتِ أسماء

قلتُ: «إنّـي نحوتُ الخمرَ أخطبها» قـال: «الدراهَم»هـل لِلمهـر إبطاءُ
لمّـا تبيّـن أنّـي غيـرُ ذى بُخَـلٍ وليـسَ لـي شُـغُلٌ عنهـا و أبطاءُ
أتـى بهـا قهـوة كالمسـكِ صافيةً كدمعـةٍ منحتْهـا الخـدَّ مرهـاءُ

(المصدر نفسه: ٢٣-٢٢)

أو فى قصيدة أخرى يقول:

وخمّـارةٍ لِلّهـو فيهـا بقيّـةٌ إليهـا ثلاثـا نحـو حانتهـا سـرنا
ولِلّيـل جلبـابٌ علينـا وحولَنـا فمـا إن ترى إنسـاً لَديـه ولا جنّا
يُسـايرُنا، إلاّ سـماءً نجومُهـا مُعلقّـة فيهـا، إلـى حيـثُ وجّهنا
إلـى أن طرقنـا بابَهـا بعـدَ هجعةٍ فقالتْ:مـن الطُّـرّاق؟ قُلنا لهـا: إنّا
شـبابٌ تعارفنـا ببابـكِ لـم نكن نَـروحُ بما رُحنـا إليـكَ فأدلَجنا
فـإن لـم تُجيبينـا تبـدّدَ شـملُنا وإن تجَمعينـا بالـوداد تواصلنـا
فقالـتْ لنا: أهـلاً وسـهلاً ومرحبا بفتيـانِ صـدقٍ مـا أرى بينَهم أفنا
فقلـتُ لهـا: كيـلاً حسـابا مقوّما دواريـقُ خمرٍ مـا نقصـنَ ومازِدنا
فجاءت بها كالشّمس يحكى شعاعُها شُـعاعَ الثُّريّا فى زُجاجٍ لها حُسـنا

(المصدر نفسه: ٣٨٠-٣٧٩)

ونكتفى بهذه النماذج فى شكل خمرياته ومن يرغب فيها أكثر، بإمكانه أن ينظر إلى قصائد أخرى له حتى يجد مجالس الخمر وآدابها. (المصدر نفسه: ١١٣ و١٢٨ و١٦٤ و١٦٩) إنّه يصوّر السّاقية أو السّاقى ولباسه وزينته. تتشكّل هذه المجالس غالبا فى وسط الرياض أو تحت ظلام الكروم. قد اشتهرت قُطرُبلُّ والكرخُ وطيزناباذ وأماكن أخرى بشراء الخمر كما يذكرها فى أبياته:

قُطرُبلٌّ مربعى ولى بقُرى الكَر خِ مصيـفٌ وأمّـى العنـبُ
تُرضِعُنـى دُرَّهـا وتلحفنـى بظِلّهـا، والهجيـرُ يلتهـبُ

(المصدر نفسه: ٣٥)

أو يقول:

ومجلس خمّارٍ إلی جنب حانةٍ بقطر بُلَّ بیـــن الجَنانِ الحدائق
تجـــاهَ میادیـــنٍ علـــی جَنباتها ریاضٌ غَدَّتْ محفوفةَ بالشقائق

(المصدر نفسه : ۲۷۵-۲۷۴)

ویقول فی مکان آخر:

فـــإنَّ جنـــان الکـــرخ مونقـــة لم تلتقفها یدٌ لِلحرب عســـراءُ

(المصدر نفسه: ۲۲)

وهو یمزج بین جمال الربیع وجلوته فی إبانة ونشوة. فقال فی وصف الورود والرّیاحین:

لا تخشَـــعنَّ لِطـــارقِ الحدثـــانِ وادفـــع همومکَ بالشّـــراب القانی
أوَ ما تَری أیدی السحائب رَقَّشَتْ حُلَـــلَ الثَـــری ببدائـــع الریحـــانِ
من سوســـنٍ غضٍّ القِطاف، وخُزَّمٍ وبنفسَـــجٍ، و شـــقائق النُعمـــانِ

(المصدر نفسه: ۴۱۵)

ویصوّر الساقی فی هذه البساتین ویقول:

ونحنُ بیـــن بســـاتین فتنَفحُنا ریحَ البنفسَـــج لا نشَر الخُزاماء
یسعی بها خنِثٌ فی خُلقِه دَمث یستأثرُ العینَ فی مستدرج الرائی
مقرّطٌ وافـــرُ الأرادف، ذوغُنُج کأنَّ فـــی راحتیه وســـمَ حِنّاء
قد کسَّرَ الشَعَر واواتٍ، ونضَّدَهُ فوق الجبین، وردَّ الصُدغَ بالفاء
عیناه تقســـم داءً فی مجاهرها وربّمـــا نفعتْ مـــن صولة الدّاء

(المصدر نفسه: ۲۵)

وفی وصف الساقیة یقول:

وذات وجـــهٍ کان البدرُ حلَّ به یهـــدی لـــک الـــوردُ
مطموحة الشعر فی قمص مزرّدةٍ العـــدوُ والتُّفّـــاح خداهـــا
فلـــو یراهـــا غـــلامٌ یلمحهـــا فی زیّ ذی ذکر سیّما وسیماها

(المصدر نفسه: ۴۲۰)

أو:

واشرب سلافاً كعين الديک، صافيةً　　من كـفّ سـاقية كالّريـم، حوراء

(المصدر نفسه: ۱۴)

والخمرة عنده عذراء تزفّ إليها ومهرها غالٍ وهى كريمة، لايخطبها إلاّ الكرام:

يا خاطـبَ القهوة الصهبـاء يمهرها　　بالرّطـل يأخُـذُ منهـا مِـلأهُ ذهبـا

قصّـرتُ بالرّاح فاخدر عن تسـمعها　　فيحلـفُ الكـرمُ أن لايحمـل العنبا

قالت: «فمن خاطبى هذا؟» فقلتُ: أنا　　قالت: فبعلى؟ قلتُ:«الماءُ إن عَذُبا»

(المصدر نفسه: ۵۲)

أو:

وقلتُ: إنى نحوتُ الخمرَ أخطبهُا: ...»　　قـال: «الدراهَم! هـل للمَهر إبطاءُ»

(المصدر نفسه: ۲۲)

وحين يشرِب الخمر من الكأس يحسّ بأنه يقبّل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البدر:

فجوّزهـا عنّـى عُقارا تـرى لَها　　إلى الشَّـرف الأعلى شعاعا مُطَنّبا

إذا عبّ فيها شـارب القوم خلتَهُ　　يقبّـل فـى داجٍ من الليـل كوكبا

(المصدر نفسه: ۴۴)

ولم يقف عند هذا الحدّ. بل رأى فى الخمرة شيئا كبيراً من الإجلال، يبلغ ذروة التقديس أحيانا حيث يقول:

أثـنِ علـى الخمـر بآلائها　　وسـمّها أحسـن أسـمائها

لاتجعـل المـاء لهـا قاهرا　　ولا تُسـلّطها علـى مائهـا

والخمرُ قد يشـربها معشـر　　ليسـوا، إذا عُـدّوا، بأكفائها

(المصدر نفسه: ۱۲)

فالخمرة عنده كلّ شى، يصفها بنعوت مختلفة ويعّبر عنها بأشكال متنوعة. فهذه الخمرة، خمرة جديدة فى الشكل وفى المعنى. نكتفى بهذا المقدار من دراسة خمرياته

من حیث الشکل وسنعالجعها فی مقال آخر من حیث المضمون.

النتیجة

یتّضح لنا بعد معالجة خمریات أبی نواس من الناحیة الشکلیّة، بأنّه فی بدایات أمره استخدم الخمرة وسیلة للفخر یفتخر بشربها ویتلف المال فیها لیدلّ علی جوده وکرمه کما یفتخر الشاعر الجاهلی. ولکنّها من ناحیة الألفاظ رائعة جدا بحیث لایمکن مقارنتها بخمریات الشعراء الجاهلیین. خمرته مشرقة منیرة وتضیء أینما وجدت فی البیت أو الحانوت. وهی بأضوائها و تلألؤها کالشمس وهی کالورد وکعین الدیک حمراء وحین تختلط بالماء تفور وتبدو فقاقیعها فوقها بیضاء کحبّات الدرّ. إنّه یشبه الفقاقیع فی وثبتها بحرکة الجراد فی ظلّ المروج. وفی تصویر الکوؤس والأ باریق یخلق صورا فنیة جمیلة یشبهها بظباء مشرفة من مکان عال وأحیاناً هی کالکراکی لها رقاب طویلة ورؤوس دقیقة. ویصف الأماکن الّتی تباع فیها الخمر و یشرح کیفیة ذهابه إلیها وحده أومع أصدقائه ویطرق باب صاحب الحانة وهو نصرانیّ حینا ویهودیا حینا آخر، یجیبهم أوتجیبم إبنته ویتوجّس من الطارقین فی أول الأمر ثم یطمئنّ بأنهم من الزبائن ویسرفون أموالهم فی سبیل الخمرة. إنه یصوّر مجالس الخمر بأحسن صورة. یصور الساقیة ولباسها وزینتها وحرکاتها وجمالها وأجزائها الجسدیة وحالاتها الروحیة وکیفیة نظرتها إلی الحاضرین. تتشکل المجالس عادة فی وسط الریاض أو تحت ظلام الکروم. یمزج جمال الأزهار والریاحین بجمال الساقیة فی البساتین. وحین یشرب الخمر من الکأس یحسّ بأنه یقبّل حبیبته التی یزهر وجهها کالنجم أو البدر. والخمرة عندها عذراء تزفّ إلیها ومهرها غال وهی کریمة لایخطبها إلّا الکرام.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم

ابن عساکر. ۱۳۳۲ش. *التاریخ الکبیر*. لاط. الشام: مطبعة الروضة.

ابن منظور، محمد بن مكرم. ۱۹۹۵م. *أخبار أبی نواس*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

البستانی، فؤاد إفرام. ۱۹۶۰م. *المجانی الحديثة*. الطبعة الثانية. بيروت: الطبعة الكاثوليكية.

حسين، طه. ۱۹۷۶م. *حديث الأربعاء*. الطبعة الثانية عشرة. القاهرة: دار المعارف.

نجيب عطوی، علی. ۱۹۸۶م. *خمريات أبی نواس*. الطبعة الأولی. بيروت: دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی